حقيقة الاشكال في محاضرة البابا

طارق الكحلاوي*

■ بالرغم من الكثير من الأحاديث والمقالات يبدو ان الاشكال فيما قاله البابا يفتقد الدقة لدى الكثيرين. وبالرغم من ان الكثير من المسلمين يشيرون الى الفقرة المأخوذة عن الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني (1391 ـ 1423) على مشارف انقرة وهو يستعد لمواجهة الجيش العثماني فان الاقتباس او الاستشهاد بفقرة لشخص آخر لا تعني في ذاتها تجنيا ما، وهي الحجة المناسبة التي اعتمدها البابا باعتبار، حسب زعمه ان ما قاله مانويل الثاني لا يمثل موقفه الشخصي. الاشكال في الحقيقة يكمن في موضع آخر وهو ما لا يمكن التوصل اليه في حالة التوقف عند قراءة الفقرة المأخوذة عن مانويل الثاني. حيث لا يجب الاعتقاد كما يعتقد الكثيرون ان ما قاله البابا استنساخ دقيق لأجواء قروسطية مسيحية (امبراطورية ـ بابوية) تجهر بالعداء الديني ولا تقبل الاختلاف.

انما يأتي في اطار فكر أكثر ليونة يستفيد من بحوث حديثة استشراقية ولكن، بالرغم من كل ذلك، يظهر الحدود الراسخة للحوار المنشود، حيث انه يبين ان الدعاة من أجل هذه الجزرة هم بالذات من يمكن ان يوفر أرضية ليس للاختلاف فحسب بل حتى للتلويح بعصا تتشبه بعصا الصراع الديني القروسطي. ان ما قاله البابا بقدر ما هو ليس استنساخا للروح الصليبية مثلما يبالغ البعض في تحليلاتهم فانه أيضا لا يؤسس لحوار بين الجانبين حيث يتعمد الخلط بين التعبير عن الاختلاف والتجني. وفي الواقع لا يعبر عن ارادة ذاتية مجردة عن الظرفية التاريخية الراهنة والتي حدد أهم ميزاتها ولو لأسباب ليست موضوعية دائما، صموئيل هنتينغتون.

استشراق بابوي

الاشكال الأساسي في محاضرة البابا يبدأ عندما ينتهي من نقل مقولات مانويل الثاني وتقديم تفسير عمومي لا يمس ضرورة الاسلام ان أردنا احسان الظن بالمتكلم. فبعد تعليق عام على كلام الأخير يؤكد الدرس المستخلص ضد «الاكراه في الدين» والقاضي بان «عدم العمل وفقا للعقل (اي من خلال استعمال العنف) هو ضد الطبيعة الالهية»، يقول البابا ما يلي: «المحقق، ثيودور الخوري، يلاحظ: بالنسبة للامبراطور، بوصفه بيزنطيا تشكل على أساس الفلسفة الاغريقية، هذه الفكرة بديهية. ولكن بالنسبة للتعاليم الاسلامية، الله متعال بشكل مطلق. ارادته لا تتحدد بأي ترتيب من تراتيبنا، حتى تلك المتعلقة بالعقلانية. هنا يذكر الخوري عملا لعالم الاسلاميات المعروف الفرنسي ر. ارلانديز، والذي يشير الى ان ابن حزن (كذا في أصل محاضرة البابا) ذهب الى حد ان الله لا يتقيد حتى بكلامه، وان لا شيء يجبره على الافصاح لنا عن الحقيقة. وهكذا اذا أراد الله فاننا يمكن لنا ان نكون وثنيين حتى» (انتهى كلام البابا).

هذه هي الفقرة الاشكالية الأساسية في المحاضرة. يذكر البابا بروفيسور الثيولوجيا والمستشرق في الفقه والقرآن الأب عادل ثيودور الخوري، اللبناني الأصل والعميد السابق لكلية مونستر، ليس بوصفه محققا للمصدر الذي نقل عنه مقولات مانويل الثاني (والذي نشره سنة 1966) بل بوصفه معلقا على كلام الامبراطور البيزنطي. ويمضي أيضا للاستشهاد بأحدى دراسات المستشرق الفرنسي الراحل هذه السنة روجي أرلانديز حول فقيه المدرسة الظاهرية ابن حزم الاندلسي. وأرلانديز من المستشرقين المحنكين والأكثر من ذلك الذين يتفادون على الأقل في ظاهر النص أي تصرف تمييزي وغير موضوعي تجاه الاسلام. ولكن من غير الصدفة ان يشير اليه الأب عادل الخوري حيث انه تعرض بشكل خاص لموضوعة «الجهاد» وساهم في صياغة أفكار الرأي العام الغربي وليس فقط الأوساط الأكاديمية حولها بفعل ما يمنحه موقعه الاكاديمي المميز (عضو الأكاديمية الفرنسية) من تأثير اجتماعي يبوئه مكانة القول الفاصل في مواضيع الاسلام. وهكذا مثلا في حصة اذاعية مشهورة بتاريخ 31 كانون الثاني (يناير) 1994 يطرح بالتحديد السؤال الذي يعلم جيدا كما أشار بنفسه انه سيثير «ردود فعل» من قبل الكثيرين: «هل الاسلام دين ارضاخ؟» بمعنى هل الاسلام هو دين عنف في جوهره وليس في أفعال بعض الفاعلين التاريخيين المنتسبين اليه. وهنا المشكل ليس في مجرد التركيز على هذه النقطة بقدر ما هو في الملاحظات التي يسوقها والتي تجعل الاسلام ظاهرة مميزة بين الديانات الكبرى، وخاصة مقارنة مع المسيحية، في اخضاع الآخرين واستخدام العنف للهيمنة الأرضية. وعلى سبيل المثال يشير الى نقطة مماثلة جدا لأطروحة بنيديكت حول ان القرآن بوصفه قادما من الله يعطي للحرب معنى اطلاقيا خاصا بمنطق إلهي بحت وهي وضعية مختلفة، حسب ارلانديز، عن الانجيل حيث لا ينزل الكتاب من اللسان الالهي. وبالرغم من تجنبه الحسم في السؤال الذي يطرحه معتبرا ان هناك براهين على الحسم بالايجاب أو بالسلب فانه يحرص على التأكيد على ان الاسلام «وحده من بين الديانات الكبرى الذي يتم اتهامه بهكذا اتهام»، وهو ما يدفع للتساؤل ان ذلك لا يمكن ان يكون مجرد صدفة. ان التركيز الخاص لأرلانديز حول هذا الموضوع يجعلنا نفهم استعمال كتاباته، ولو بشكل تعسفي، من قبل متطرفين يمينيين في الغرب ومعادين صريحين وفي الجوهر للاسلام بوصفه «سبب البلاء» الراهن في العالم. حيث يتم الاستشهاد بكثرة اما بالحصة الاذاعية أعلاه أو بمقال كتبه حول رؤية ابن حزم لمسألة «الجهاد»، والمقال الأخير بالتحديد يحيل عليه اندرو بوسطوم (طبيب مباشر ومستشرق محدود الموضوعية وهاو ولكن الشهير بفضل علاقاته) المساهم في الموقع الأمريكي ـ اليميني ـ المتطرف «فرونتبياج ماغازين» في أحد مقالاته حول «اخضاع» الاسلام لأوروبا.

اختيار البابا للمستشرقين المذكورين ليس اعتباطيا حيث يوجد تناسق في أفكارهما حول النقطة المحددة التي انتهى اليها والتي تمثل خلاصته الشخصية، وليس مجرد اقتباس لمقولة الامبراطور البيزنطي، والمتمثلة في انه بالنسبة للاسلام، وليس مجرد دين هلامي غير معروف، فان الدين هو مجرد أوامر منزلة ولا يخضع الى أي نسق عقلاني داخلي مثل المسيحية حيث انه بالنسبة لنا كمسلمين «اذا أراد الله فاننا يمكن لنا ان نكون وثنيين حتى». لم يستشهد البابا بمقولة الامبراطور البيزنطي لدحضها، كما انه لم يستشهد بها لمجرد عرض فكرة قروسطية يحرص على اقامة بعض المسافة منها، بل انه يجد فيها صدى قديما لفكرة تحتاج التذكير فحسب وليس التأكيد. وهنا لعب الخوري وأرلانديز دور المستشرق المعاصر الذي يعقلن ويوضح انطباعات امبراطور قروسطي.

«الغرب» والاسلام

ذهبت بعض التقارير الصحافية الغربية وحتى العربية الى ان من كتب محاضرة البابا كان يرغب في التأكيد على مرحلة جديدة في الكنيسة الكاثوليكية قد بدأت تتميز بغلبة خط محافظ، أطلق عليه البعض «صقور الفاتيكان»، يتزعمه منذ مدة طويلة البابا بنيديكت السادس عشر في مقابل خط أكثر اعتدالا، «الحمائم»، كان يتزعمه البابا يوحنا بولص الثاني. وحسب نفس التقارير يشق الصراع بين هذين الخطين محاور عديدة من بينها كيفية «تعزيز ونشر الهوية المسيحية» حيث يدافع «الصقور» عن رؤية ترى في ترسيخ الفروق بين المسيحية وبقية الديانات وسيلة مناسبة لتقوية المسيحية في حين يرى «الحمائم» انه يجب الاكتفاء بالتركيز على أهمية المسيحية من دون التعرض لبقية الاديان. وفي حالة ما اذا كان ذلك الصراع حقيقيا فانه طبعا سيكون وثيق الصلة بطبيعة «الحوار» الذي تعتزم الكنيسة الكاثوليكية سلوكه بخطها السائد حاليا مع الاسلام.

غير ان هذا التحليل لا يعكس بالدقة الكافية الصورة البالغة التعقيد التي أمامنا. لنذكر معطى واحدا للتدليل على ذلك: في مناسبة التقائه بمسيحيين ومسلمين عراقيين في شهر حزيران (يونيو) 1999 قبل يوحنا بولص الثاني نسخة من القرآن وهو ما أطلق عددا من الانتقادات بما في ذلك من داخل الفاتيكان رأت في تلك الخطوة حركة غير مناسبة بالنسبة لصورة المسيحية. الملفت آنذاك ان وكالة انباء الفاتيكان أوردت ذلك الخبر مبررة خطوة البابا بكتاب حول القرآن للأب عادل ثيودور الخوري صدر سنة 1996 مشيرة الى ان قراءته مفيدة «للرقي بالعلاقات المسيحية الاسلامية». وفي الواقع كتب الأب الخوري الكثير من الكتابات التي تشدد على أهمية الحوار بين المسيحيين والمسلمين. غير ان الملاحظة المنقولة عنه أعلاه من قبل البابا تبين كيف انه يريد الحوار مع دين لا يعتقد انه يتحمل في ذاته حدا أدنى من العقلانية. يتماثل ذلك الى حد ما مع رؤية أرلانديز لكيفية اجراء الحوار بين الديانات الكبرى حيث أوضح في احدى المرات انه يسعى «للتمييز لتحقيق الوحدة». و«التمييز» هنا وكما رأينا أعلاه يتم بين «اطلاقية» الاسلام غير المضبوطة بشريا وانجيل متواضع أكثر مع الحدود البشرية. وهكذا في الجوهر حتى دعاة الحوار، ومن ثمة من يوفرون الحد الأدنى من التوافق، يملكون رؤية للاسلام لم تحقق قطيعة كاملة مع الرؤى القروسطية.

ان ذلك مؤشر على مسألة في غاية الأهمية تحمل على التفكير بجدية أكثر في أطروحة صموئيل هنتنغتون حول «صراع الحضارات». ان المأزق الذي تعيشه الرهانات الكونية للحداثة والانكماش الثقافي الناتج عن ذلك وما يتأسس عليه من مرجعية ثقافية غالبة في الصراعات الدولية هو السمة الأساسية لهذه الظرفية. وبمعنى آخر فان الصراع السياسي القائم حاليا والذي يشمل بالضرورة أطرافا على علاقة بالبابا، والذي يجب ان نتذكر انه رئيس دولة غربية هي الفاتيكان، يأخذ بالضرورة تمظهرا ثقافيا ساطعا ذا بعد ديني بفعل الظرفية التاريخية الراهنة. وهكذا مثلا لا يجب ان نتصور انه كان سيكون أي أثر مماثل لما قاله البابا أو رئيس دولة الفاتيكان في ظرفية مغايرة مثل الحرب الباردة. في معادلات هنتينغتون هناك فشل غربي في تمثل الذات الغربية كذات غير حداثية أو كونية تماما. طبعا هناك في المقابل ما يكفي من الأدلة على تقارن الحضارات حيث كان جزء هام من الاسلام دعامة أساسية لجزء كبير لما نعنيه اليوم بـ«الغرب»، أو مثلما يحاجج بكثير من النجاح مستشرق من مدرسة أخرى، ريتشارد بوليات، حول وجود «حضارة مسيحية ـ اسلامية» في الفترة الوسيطة. ولكن ما يعنيه هنتينغتون هو انه لا يمكن تمثل هذا التقارن بالقدر الذي يتم فيه تمثل الحدود في الظرفية التاريخية الراهنة. وبمعنى آخر فان الحوار الوحيد الممكن في المستقبل المنظور سيكون حول حدوده وليس آفاقه. لكن رغم ذلك لا يوجد ما يكفي من المعطيات للاشارة الى تكرار الصراع القروسطي الأعمى.

* باحث تونسي في التاريخ ـ جامعة بنسلفانيا (الولايات المتحدة)
http://arts-of-islam.blogspot.com

قراءة تحليلية في استبيان «الجزيرة» حول أحداث 11 أيلول:

لماذا اصبح جميع المسلمين محسوبين على بن لادن؟

د. حسين شعبان*

■ يثير استطلاع الرأي الذي أجرته فضائية «الجزيرة» مطلع أيلول (سبتمبر) 2006، تحت عنوان «استبيان بعد مرور خمس سنوات على هجمات 11 أيلول (سبتمبر)» أسئلة كثيرة، حيث تعمد وسائل الاعلام المرموقة في زمن تطور الاتصالات الى ابتداع أساليب وطرائق غاية في المرونة تمكنها من غزو عقول وقلوب القراء والمشاهدين والمستمعين.

يكتسب نشاط «الجزيرة» الاستبياني ايجابية قلما تمتعت بها أي مؤسسة مثيلة، فتمويل هذه محلي وتاليا لا يمكن الحديث عن املاءات أو ايحاءات لجهات خارجية كما في مؤسسات أو جمعيات خاصة تمارس نفس النشاط. هذا اضافة الى اجتذاب «الجزيرة» طاقات بشرية وعلمية أكسبتها سمعة ومكانة طيبة في المجتمع العربي، الامر الذي انعكس ايجابا على دولة قطر وحكومتها فرفعها الى مكانة متقدمة ومحترمة عالمياً، في المقابل تراجعت ونكاد نقول انهارت فضائيات ووسائل اعلام منافسة تمولها حكومات ثرية ذات مكانة اقليمية وعالمية، لان هذه (الحكومات وفضائياتها) لم تصن قيم وأخلاقيات مهنة الاعلام والصحافة.

أسئلة ونتائج الاستبيان الذي نحن بصدده يثيران ملاحظات جوهرية وحساسة ذات صلة بكمية ونوعية الجهد المبذول في اعداد وصياغة الاسئلة للأسباب الجوهرية التالية:

أولاً: تضليل المشاهد واخضاعه لوجهة نظر واحدة: تغطية أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 بالطريقة التي اتبعتها «الجزيرة» كان فيها الكثير من المحاباة والتملق السياسي، أخضع المشاهد والقارئ بنتيجتها لوجهة نظر واحدة. فالارقام والحقائق ومن باب التذكير تقول ان عدد الابرياء الذين قتلوا انتقاماً لضحايا 11 أيلول (سبتمبر) 2001، يقدر بمئات آلاف الأبرياء العرب والمسلمين. في حين تعاظمت مأساة المسلم بغض النظر عن جنسيته ولونه وعرقه بعد ان اعيدت الى الحياة تشريعات ومراسيم العنصرية البغيضة الى مؤسسات الدولة الديمقراطية الحديثة.

ثانياً: لماذا أصبح جميع المسلمين محسوبين على بن لادن؟ الوقائع تؤكد ان سياسة الرئيس جورج بوش وحلفائه في الاتحاد الاوروبي اتهمت جزافاً كل مسلم بالانتماء الى تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن. فبعد أحداث أيلول/ سبتمبر أصبح المسلم أي مسلم ترتعد أوصاله ما ان يقترب من رجال الحدود في المطارات والمرافئ الامريكية والاوروبية كونه معرضا للتمييز في التفتيش والتدقيق والتحقيق والمساءلة. المواطن المسلم في هذه البلدان لا يجرؤ على تلفظ اسم أي من رموز «القاعدة» أو طالبان، وان فعل ذلك في لندن أو أوكسفورد أو أي مدينة أخرى في المملكة المتحدة مثلاً، فانه يتلفت ذات الشمال وذات اليمن وينظر خلف كتفيه كالمصعوق دون ان ينجو من توبيخ مجالسيه في حال تلفظ باسم بن لادن مثلا. ولتجاوز هذه المعاناة فان المسلمين يستخدمون أسماء ومصطلحات خاصة في أحاديثهم عندما يطرقون مواضيع راحت تشكل جزءاً من حياتهم اليومية. هنا نسوق المثال التالي: بعد أيام قليلة على أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 كنت أسير في حديقة كاشز لين التي تقيم في محيطها نسبة معتبرة من المسلمين غير العرب في مدينة كوفنتري وهي مدينة صناعية وسط المملكة. ذهلت عندما شاهدت كثافة العبارات المكتوبة على عجل على جذوع الاشجار وتشيد جميعها بأسامة بن لادن وتنظيم «القاعدة»، وتشتم الرئيس الامريكي بوش بعبارات نابية. أكثر من ذلك فقد حدث خلال تلك الأيام ان تجمع عدد من الصبية ذوي الاصول الآسيوية في ذلك الحي على ضفة القناة السياحية في المدينة وراحوا يرجمون راكبي القوارب بالحجارة وهم يصرخون «بن لادن، بن لادن، أسامة بن لادن».

على الصعيد الرسمي أساء رؤساء حكومات اوروبية الى الاسلام كما في حال رئيس الوزراء الايطالي السابق برلسكوني كمثال لا للحصر، في حين عملت حكومة الاتحاد الاوروبي على ايجاد لوبي من المسلمين يدعم وينفذ سياساتها، وهذا اللوبي في الغالب حفنة أفراد يعتاشون في الغالب على مساعدات الاعانة. فالجالية العربية في المملكة المتحدة مثلاً لا كيان تمثيلي، اجتماعي أو سياسي لها. والصحيح ان من يدعون تمثيل الجالية العربية أو المسلمة هنا يمثلون جمعيات ورقية تضم في الغالب مالكها ومنتفعين اعتادوا الترويج لأفكار لقاء فتات القروش. وتصديقاً لما نقول فان معظم الفضائيات العربية في لندن تجد سيلاً من المتهافتين للمشاركة في برامجها مجاناً، الامر الذي شجع معدي البرامج والاخبار على عدم دفع بدل أتعاب للمختصين، هذا مع التأكيد ان الوقت في المملكة المتحدة يقاس بالمال، هذا لكل من له وظيفة وعمل دائمان. وليس من قبيل الصدفة ان يجوب هؤلاء بتململ وابتذال مدن العراق كلما اختطف مواطن غربي تعجيلاً في اطلاق سراحه في حين تنحط هممهم ويتلاشى عزمهم عندما يضج العالم باخبار فضائح ضحاياها من أبناء جلدتهم.

في المقابل بقي رأي الباحثين والمعارضين السياسيين المحترمين، جورج غالواي مثلاً غير مسموع لان رأيه يتعارض ورغبات السياسيين الذين سذجوا الظاهرة وعزوها الى الفقر والبؤس والاحباط حينا واليأس والجهل والتطرف والتعصب الاسلامي أحياناً أخرى. ثم جاءت أحداث 2005/07/07 في لندن لتؤكد ان منفذي تلك التفجيرات كانوا ميسورين، متعلمين ومن أسر وعائلات محترمة. وعلى صعيد آخر شبه جنرال اسرائيلي مرموق أعمال التدمير وحرب الابادة التي ارتكبها الجيش الاسرائيلي في لبنان خلال الحرب الاخيرة بجرائم النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، هذا مع العلم ان الرئيس بوش وادارته دافعا عن حكومة اسرائيل ومنحا جيشها الوقت الكافي والاسلحة الحديثة.

ثالثاً: شعارات متعصبة: بعد احداث 11 أيلول (سبتمبر) أعلن الرئيس جورج بوش حربه على الارهاب بشعارها المتعصب «من ليس معنا فهو ضدنا»، ثم توالت أعمال تدمير الدول ومؤسساتها في المنطقة العربية التي سميت جزافاً بـ«الشرق الاوسط». وراح مروجو الحروب في المؤسسات العلمية الدائرة في فلك البيت الأبيض يدافعون عن اعمال قتل الابرياء في العراق وتدمير مؤسسة الدولة في هذا البلد والاحتماء بشعارهم المحبب «لا محرمات في الحب والحرب» متجاهلين ان هذا الشعار سيف ذو حدين. اذن أليس من السذاجة والجهل ان يسأل الاستبيان عن موقف المواطن العربي من السفر الى أمريكا في حين تجزم الحقائق ان العرب وأموالهم مهددون كل لحظة في هذا البلد. ثم ما الحكمة من السؤال عن أسباب الحرب الامريكية على العراق وعلاقتها بالاسلام أو علاقة الاسلام بها، في حين ان الكثير من موظفي البيت الابيض السابقين الذين عملوا مع الرئيس جورج بوش يجزمون انه متعصب ومتطرف في مسيحيته.

رابعاً: تجاهل أمن وسلامة المستفتى: من البديهي ان يراعي أي بحث ميداني أمن وسلامة المستفتى وتدارك حقيقة ان أباليس المخابرات يتلصصون ويسترقون النظر والسمع على كل رسالة الكترونية، هاتف ثابت أو نقال أو حساب مالي أو حركة مؤمن يؤم بيوت الله للصلاة، أو انسان لا ذنب له الا كونه ولد لأبوين مسلمين ويحمل اسما مسلماً. الواقع يؤكد ان الحكومات الغربية خنقت حق التعبير عن الرأي والديمقراطية في مجتمعاتها بدءاً من البنوك وصولاً الى فرص العمل، حيث لوحظ في المملكة المتحدة ان طلبات الوظائف الخاصة والعامة اضيف اليها سؤال عن جنسية المتقدم للوظيفة، في حين راحت البنوك تشدد من اجراءاتها للراغب في فتح حساب بنكي جديد، وأصبح على المتقدم بطلب كهذا ان يثابط ملفاً من الاوراق الثبوتية بدءاً من مكان سكنه وصولاً الى جواز سفره.

بالعودة الى نتائج الاستبيان تبين ان 49,9 % من المستطلعة آراؤهم قد أعلنوا تأييدهم لأسامة بن لادن. الاكيد ان هذه النسبة لا تتمتع بالصدقية بسبب امتناع الكثيرين عن المشاركة لانهم وضعوا امام خيارين أحلاهما مر «مع أو ضد» دون أي خيار ثالث، ولسان حال معد الاستبيان يقول: الاستبيان حزمة واحدة (فقيرة الرغبة في التطور)، الرغبة أصلا غير موجودة.. حتى لدى هؤلاء الذين تعلموا و(عاينوا) كيف تتطلع الشعوب الأخرى إلى (المزيد من الخدمات العصرية) وكيف (تتمرد) على فساد حكامها لأن هذا الفساد يحول أساسا دون توفير المزيد من الخدمات، لماذا إذن يحدث في موريتانيا انقلاب كل عدة أشهر؟! أسأل.. قال: «لدينا انقلاب من وقت إلى آخر.. لكن كما ترين.. قصر الرئاسة يقابل مقر الجيش.. ليسهل انقلاب بعضهم على بعض! ومبنى التليفزيون المتواضع البائس ليس ببعيد عنهما.. جاهز لاستقبال من يملي البيان كل عدة أشهر»، المؤلم حقا أن في بلد به هذه النسبة المرتفعة من الأمية وينتظر أن تحمل القلة المتعلمة فيه (همّ) الخلاص من (فطرة البداوة).. تجدها هي نفسها ـ تلك القلة ـ (تتفاخر) بفطرية البداوة! لعلها (مكابرة).. يواجهون بها ذهول الزائر من غياب (الروح العصرية) عن هذا البلد.. نعم هو بالنسبة إليهم (وطن).. لكن إن لم يكن حب الوطن يدفع إلى التمرد على ما فيه من بلاء وتخلف.. فما قيمة هذا الحب.. بل ما قيمة الوطن؟

عيناها لا توجد فيهما نظرة انكسار

المرأة الموريتانية ـ يا للعجب ـ هي الظاهرة الإيجابية الوحيدة (ربما) في موريتانيا! هي أكثر حظا من أي امرأة عربية في مصر أو في المشرق أو في المغرب، فهي تواجه الرجال بقدر من (الندية) تحسدها عليها العربيات الأخريات.. لا تصادف أبدا في عيني امرأة موريتانية ـ فقيرة أو غنية ـ (نظرة انكسار)، صحيح أن المبنى الوحيد الأنيق في نواكشوط هو (مسجد) بنته السعودية.. وهو ما ينبئ أن (هلاكا يتربص بحرية المرأة الموريتانية) يقترب من بلدها بظهور أيادي السعودية فيه.. لكن.. ربما.. توقف المرأة الموريتانية بقوتها هذا الفيروس قبل أن يعُض حريتها هنا، تعليقا على ملاحظتي حول (جرأة وإقدام المرأة الموريتانية) ضحك مضيفي: «هنا في موريتانيا نحن الرجال مساكين»، ثم قال: «أتعرفين الإمام الشافعي؟! احتار أمامه بعض الفقهاء في تعريف المحصن وغير المحصن فقال لهم.. المحصن من تزوج بمصرية»! هاها.. حسنا.. هذه مغازلة موريتانية لطيفة على المذهب الشافعي.. لكنني مالكية!

في انتظار (انقلاب) موريتاني لا على النظام الحاكم فقط وإنما على (فكر البداوة) الذي يحول دون (تطلع) هذا الشعب الطيب الودود للحاق بزمنه بعد أن فصله عنه حكامه الوطنيون.. يتطلع الزائر إلى لحظة ركوب ظهر (بعير الزمن) للعودة به إلى عصر جاء منه مختارا ليزور هذا المكان.. وهذا الزمان! يقول صديقي مبتسما.. رغم ذلك ستحبين موريتانيا وتعودين، يا عزيزي.. أحببتكم فعلا لأنكم دافئون لكنني.. لكنني لن أعيدها!

* كاتبة من مصر
howayda5@hotmail.com

العراق طائرة مخطوفة وشعبه ركّابها.. فتحت أي بند شرعن مجلس الأمن وبوش الخطف والقرصنة؟

سمير عبيد*

■ ذات مرّة تناقشت مع مثقف نرويجي أثناء احتفالاتهم بذكرى أجدادهم القراصنة (الفايكنغ) حيث يجلسون ويضعون على رؤوسهم غطاء يحتوي على قرنين رمزا للقراصنة، ويسهرون ويغنون ويأكلون ويشربون، فقال لي: انهم أقوياء وأشداء ومحاربون من الدرجة الأولى، وكانوا على قدرة فائقة من الصبر والتحدي، وأخذ يشرح لي بطولاتهم وغزواتهم البحرية وحروبهم التي كانت تدور في عرض البحر وقرب السواحل والجزر، فسألته سؤالا عرضيا وفيه نوع من المناورة ربما: هل تعتقد بأن المسلمين والعرب سيحتفلون بعد مئة عام بذكرى بن لادن مع اختلافي معه؟ فكاد يقفز من مكانه واحمرّ وجهه، فرد عليّ: لا أعتقد هذا، لأن هذا ارهابي، فتدخل صديق له كان يجلس معنا وقال: أنا أعتقد انهم سيحتفلون بذكراه، فالقضية لا تختلف عن قضية الثائر ـ تشي غيفارا ـ فكان بنظر الدول الكبرى ارهابيا، ولكنه خلد فتصوّر أن ابنتي البالغة من العمر 15 عاما ترتدي قميصا عليه صورة غيفارا، وهي لا تعرف شيئا عن غيفارا، وعندما أسألها تقول لي: انه قوي وشجاع وقلبه على الناس جميعا، وخصوصا الذين هم تحت مطرقة الظلم، فقلت له: هل هذا يعني بأن حفيدتي ستلبس قميصا عليه صورة بن لادن بعد خمسين عاما؟

فضحك وقال: لا لا ربما بعد عشرين عاما، فعدت الى الشخص الأول الذي شاهدت على وجهه نوعا من القناعة، وأصبح يرتخي من تشدده الأول فقلت له: ألا تعتقد بأن أجدادك كانوا ارهابيين بدليل أنهم كانوا يبطشون بالأبرياء ويسلبون السفن ويقطعون الطريق... فلماذا لا تكون أنت مثلهم ارهابيا وقاطع طريق حيث ان هناك كثيرا من المتحاملين على العرب والمسلمين عندكم في الغرب والولايات المتحدة يقولون بأن الارهاب في جينات العربي والمسلم؟ فرد عليّ صاحبه وقال: ولعلمك حتى أجداد الامريكان أنفسهم من الارهابيين لأنهم أبادوا شعب (الهنود الحمر) واستولوا على مزارعهم وأراضيهم وممتلكاتهم وعملوا على انقراضهم أي هم لا بد أن يحاكموا لأنهم تعمدوا القضاء على شعب كامل، فعاد وسأل الأول: بالفعل أنتم نبهتموني الى شيء كان غائبا عن ذهني، لماذا لا نكون نحن مثل أجدادنا قراصنة وميالين الى العنف وقطع الطريق والسلب؟ ولماذا أصبح الامريكان الآن يقلدون أجدادهم بالعنف والاعتداء على الشعب العراقي والفلسطيني واللبناني والأفغاني، ويريدون الذهاب صوب ايران وسورية وكوريا وغيرها من البلدان؟..فرد عليه صاحبه بكلام موزون ورائع: ولعلمك يا صديقي ان الامريكان يحتقروننا نحن الأوروبيين، ولكن عندما تورطوا في العراق وأفغانستان جاءوا ليتوسلوا بنا كي ننقذهم من ورطتهم في العراق، لهذا من واجبنا تنبيه شعوبنا.

هنا تيقنت بأن الولايات المتحدة ستفقد الشعوب الأوروبية قريبا، وخصوصا الطبقات المثقفة في أوروبا، ولكن للتعجيل في هذا يجب على العرب والمسلمين قدح شعلة الحوار معهم، ومن ثم سحب الفتيل المختبىء في نفوسهم واخراجه للسطح واشعاله، وهذا يحتاج الى مفكرين ومثقفين عرب ومسلمين للقيام بالمهمة، ومن دون قعقعة السلاح والتصريحات النارية، ولا يحتاج هذا الا تخصيص ميزانيات من الأنظمة العربية ـ ورغما عنها ـ لأن في تقاعسها ستغرق مع شعوبها بطوفان المحافظين الجُدد، والمدرسة الانجيلية التي ضغطت حتى على بابا الفاتيكان أخيرا ليشترك معهم في المعركة، أي ليقدح جانب المعركة هو (الجانب الديني) ولهذا جاء تصريح البابا في عشية ذكرى 11 ايلول (سبتمبر) أي ذكرى التفجيرات التي حدثت في نيويورك وواشنطن، والتي حصدت آلاف الأبرياء بمن فيهم من المسلمين، وكانت الحجة لتحريك مشروعهم الصهيوني ـ الامريكي نحو المنطقة بحجة الرد على أحداث 11 ايلول (سبتمبر)، علما ان النظام العراقي لم تكن لديه علاقة بتنظيم القاعدة، وبشهادة من دوائرهم العليا وفي مقدمتها الكونغرس الامريكي، وبتقارير مثبتة ومنشورة.

ولو عدنا لقضية بن لادن والقاعدة فهم الذين صنعوها وصنعوا الرجل، ومعهم بعض الأنظمة العربية وفي مقدمتها المملكة السعودية، ولو كان هناك عدل وقانون دولي صارم وصادق لأجبر الولايات المتحدة والسعودية على دفع تعويضات لجميع الدول والشعوب والأشخاص والمؤسسات التي تضررت نتيجة ما بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، لأننا لو فرضنا ان بن لادن وتنظيم القاعدة هو الفاعل الحقيقي من هنا نسأل: من هو الذي صنع بن لادن ودعمه ودربه ونقله الى أفغانستان.. ومن هو الذي سلط الأضواء على بن لادن والظواهري وأبو غيث الكويتي والقاعدة؟ ألم تكن الولايات المتحدة واعلامها الهوليوودي والاعلام الغربي، ومعه الاعلام العربي الذي يتحرك بأوامر السفارات الامريكية؟

ومن هنا ألا يحق لشعب العراق وأفغانستان تقديم دعوى طلب تعويض من الولايات المتحدة والمملكة السعودية، ومن الدول العربية التي طارت وتطير منها الطائرات لتدمر المؤسسات والبنية التحتية العراقية ناهيك عن قتل العراقيين؟ وألا يحق لشعب العراق تقديم شكوى استغاثة لجميع المنابر العالمية، وحتى لجمعيات الرفق بالحيوان والأشجار والكائنات البحرية والبرية حول تهمة (الخطف) التي قامت ولا زالت تقوم بها الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الدول الأوروبية لشعب وحيوانات وأشجار وكائنات البر والبحر في العراق؟

فمن هو الذي شرعن وأباح عمليات الخطف والقرصنة؟

ولماذا يُحاسب الذين يخطفون الطائرات والسيارات والقطارات؟ ولماذا يُحاسب الذين يقتحمون البنوك والمؤسسات والخزائن ودوائر البريد من أجل سرقتها؟

ولماذا يُحاسب المزوّر والغشاش والمختلس؟

ولماذا يُحاسب القاتل والمدمن والمجرم وقاطع الطريق؟

فجميع هذه التهم تمارسها الولايات المتحدة ورجالها، وبريطانيا ورجالها، وبعض الدول الأوروبية والاقليمية وحتى بعض الدول العربية ورجالهم في العراق وفي وضح النهار... حيث خطفوا الشعب العراقي وحولوا العراق الى طائرة مخطوفة، وبقيادة القرصان الأكبر ـ جورج بوش ـ ومساعديه..

لهذا فمن هو الذي يحرّر العراقيين من القرصان الكبير بوش وجماعته القراصنة في المنطقة الخضراء ومن بعض السفارات الغربية والاقليمية في العراق، والتي تشترك كلها بعملية القرصنة والاصرار على خطف العراق ونهب محتويات الطائرة (العراق) وتركوا لركاب الطائرة (الشعب العراقي) الفتات والعظام وبقايا الموائد؟

فأي حق وتحت أي عرف وقانون يحدث هذا.. ومن قال اننا لا نعيش في قانون الغاب الذي يمارسه الرئيس بوش والادارة الامريكية في العراق وبعض دول العالم؟

من هنا نسأل: من هم الذين في جيناتهم العدوان والخطف والسلب والنهب والبطش والاستحواذ والارهاب فهل هم الامريكان والانكليز أم هم العرب والمسلمون؟

فلمن يعترض عليه تشغيل تلافيف دماغه المخدر باعلام امريكا، وبدولارات البنتاغون، وينغمس بالتفكير حول ما تفعله الولايات المتحدة وبريطانيا في العراق من تجاوز على القانون وكرامات الناس وحقوق الانسان، واغتصاب الحكم في العراق الى الحرة التي يهشونها بعيدا عن ملابسهم وشعرهم بكل بساطة، «تقدمي ولا تخافي.. دي حشرة مسالة»... على وجه القائل ابتسامة سخرية من ذعري! داخل القاعة توجد في السقف مراوح لا طائل من عملها أمام هذا الحر الخانق المفزع.. المطار غير مكيف! الأجساد تتلاصق وروائح تملأ المكان تكاد تقضي على البقية الباقية من الصمود! أفارقة وعرب وأوروبيون، ليس انتظارا لدوري فلا توجد صفوف أصلا وإنما تروبا لشحن النفس بالتحمل للمرور من الأزمة على خير شغلت نفسي بمراقبة سيدة ذات ملامح أوروبية تحمل رضيعا أوروبيا.. المسكينة! مصدومة مذعورة مذهولة صامتة لا تصرخ لا تتأوه لا يصدر عنها شيء يعبر عن شيء، بل تسخر كل طاقتها لابعاد الحشرة اللعينة عن رضيعها الغض! ماذا تفعل أوروبية شقراء بعيون زرقاء هنا؟

هل لديهم سياحة هنا مثلا؟! انتهى الصديق الموريتاني من إنهاء إجراءات دخولي، وأخذني صامتة مستسلمة إلى السيارة، لا يبدو متفاجئا بما يبدو مما فشلت في محاولة إخفائه من ملامح الصدمة.. هو واحد من (قلة) من شباب موريتانيا تعلموا، لديه شهادة الدكتوراه في القانون حيث درس بالمغرب، أما من قال ونحن نخرج من الدار البيضاء:(ودّعي الحضارة) فقد درس في السوربون بباريس، وأعرف أصدقاء آخرين موريتانيين وصلوا إلى درجة كبيرة من التعليم والتعلم وأبدوا تميزا في العمل.. خارج موريتانيا طبعا، وبينما تصل نسبة الأمية في موريتانيا إلى أكثر من ستين بالمئة ـ حسب تقارير اليونسكو ـ فإن تلك القلة التي تعلمت هي من توجهت إليها بألف سؤال وسؤال عن موريتانيا..

الاستعمار والتطور والبداوة وأسئلة أخرى

في الصباح بدأت مسيرة التعرف على (مدينة) نواكشوط.. لا توجد بنايات! لا عالية ولا منخفضة، إلا من عدد قليل هو بنايات متواضعة للغاية تخص الوزارات، لا توجد شوارع وأرصفة كتلك التي نألفها فيما نعرف من ب